

بسم الله الرحمن الرحيم

الخلافة الدستورية

الناظر للخلافة الإسلامية في الكتاب والسنة يجدها مطوقة بإطار دستوري مدني تفرضه آية الشورى [وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ]، أي أن السلطة والحكم في الإمارة الإسلامية شورى بين المسلمين، لأن أمرهم تعني كل شؤون إمارتهم وسياستها وبينهم تعني كلهم، وفي هذا تكليف واضح لكل مسلم بأن يبذل جهده في العمل السياسي لرفعة الأمة، فالمشاركة في الشورى أمانة لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: [المُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ]². هذا وتؤيد الكثير من الشواهد والأحداث في مرجعية المسلمين العليا هذا المفهوم الإسلامي الأصيل، حيث أوردت دائرة معارف القرن العشرين تحت مادة الدستور ما يلي:

" الدستور في العرف السياسي في عصرنا هذا على الأخص، هو النظام الذي يخول الأمة حق سن القوانين ومراقبة السلطة التنفيذية، وقد بدأ اليونان طرق باب الحريات الدستورية بما أقاموه من الجمهوريات وما نصبوه من المجالس النيابية، ثم تلاهم الرومان.. ولكن سلطة الأمة في كل هذه الهيئات لم تكن حاصلة على جميع حقوقها بل كانت هذه الجمهوريات والمجالس النيابية مصبوغة بصبغة سلطة الخاصة فلم يكن لعامة الشعب نصيب منها.. فلما جاء الإسلام في القرن السابع الميلادي خول الأمة التي ألغى جميع حقوقها ومحق التمايز بين الناس من أي نوع كان، فلم يعترف برؤساء دين ولا بخاصة بل وضع الناس جميعاً في مستوى واحد من الإخاء ونادى كتابه في الناس [يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا]³ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ]³. ثم جعل الحكم شورياً بمقتضى آية الشورى. فأن لم يستطع المسلمون في مبدأ تكوينهم أن يقوموا على نظام حكومي ثابت، ففي وسع المسلمين اليوم أن

¹ الشورى - ٣٨

² مسند الإمام احمد ٢١٩٨٣ - الترمذي ٢٩٠١

³ سورة الحجرات الآية ١٣

يكونوا على شكل من أشكال الحكومة بمقتضى دينهم، وهي ميزة ليست لأمة من أمم الأرض".

ما تقدم يؤكد أن الإسلام وفي خطوة تقدمية جعل السلطة والحكم في الدولة الإسلامية من بعد الرسول صلى الله عليه وسلم بيد المسلمين مفوضين بنص آية الشورى، وجعل المشاركة في مسار الدولة فريضة دينية فالأمر شورى كما جاء في القرآن الكريم و[[المُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ]]^١ كما جاء في الحديث. بل وزاد الله سبحانه وتعالى على ذلك ودعم هذا التفويض بأن جعل طاعة ولاية الأمر الشرعية من طاعة جل شأنه بنص آية الطاعة: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ}**^٢.

عليه فقد طوق الإسلام ولاية الأمر بالشورى كحق لكل المسلمين، وجعل مشاركة كل مسلم في مسيرتها أمانة واجبة الأداء، وكذلك جعل الطاعة لقراراتها من طاعة الله سبحانه وتعالى في منظومة هي الأقدر على قيادة العالم. وهذا ثابت في زماننا هذا حين أخذ الغرب الاستعماري بالشورى، وطوى العالم الإسلامي تحت جناحيه، على الرغم من مقاومة المسلمين المتشبثة بقوة بآليات ولاية الأمر الإسلامية من الدعوة للجهاد والاستشهاد والأخذ بالقيم الإسلامية في إدارة المجتمع. فكل تفاصيل ولاية الأمر قد أصبحت أشتاتاً بعد أن خرجت عن إطارها الشرعي المتمثل في الشورى، وذلك لأن الأحكام الواردة في الكتاب والسنة شاملة ومتدرجة ومرنة، والشورى هي آلية الاختيار المرضية والجامعة للناس وعقل المجتمع المدبر، وهي ما تحتاجه دهاليز السياسة المحلية والإقليمية والدولية المتداخلة، وها هو الغرب في بيان عملي يتقدم بالشورى خطوات تنموية تحسب له.

ويمكن تقدير مدى تقدم الغرب الأوربي وما فعله في العالم الإسلامي، من وصف محمد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان في العهد الديمقراطي الثاني لأوروبا الذي قال فيه: "أوروبا التي مكنها التطور من تسخير طاقات إنسانية هائلة فشيدت صروحاً شامخة من العمران في الاقتصاد والاجتماع والسياسية. وابتدعت

^١/ مسند الإمام احمد ٢١٩٨٣ - الترمذي ٢٩٠١
^٢/ سورة النساء الآية ٥٩

أساليب جديدة في العمل الإداري والعسكري. وأخضعت للإرادة البشرية طاقة البارود والبخار والنفط والكهرباء. فغزت أوروبا بلادنا وهي مزودة بكل الإمكانيات ف وقعت في قبضتها قطراً بعد قطر "١. وأعجل نظر في هذا الوصف لأوروبا وما فعلته بالعالم الإسلامي من قائد سياسي يعرف ما يقول، إثبات لعدم جدوى الأخذ بالآليات الإسلامية من جهاد وقضاء وإدارة مدنية خارج إطارها السياسي، والذي يتمثل في شورى المسلمين كإطار دستوري لضمان النجاح وتفادي الفشل الذي هو حليف كل مخالف مهما أبدى من أثره وإخلاص ونشاط، فضرورة الشورى في النظم السياسية لا حدود لها.

وأوضح مثال على حاجة النظم الإسلامية للشورى، هو دولة المهدي في السودان [١٨٨٥ - ١٨٩٨م]، فقد بلغت درجة متقدمة من التضحية والفداء نجدها واضحة في وصف ابن قائد مسيرتها سعادة عبد الرحمن المهدي الذي قال في مذكراته: " كنت وأنا في الخلوة أعيش في بيئة اجتماعية فريدة ليس لها نظير في التاريخ الحديث. كنت في وسط فيه أن الآخرة خير من الأولى وكل يفضل أن يستشهد في سبيل دين الله. وسط يفضل كل من فيه ألا يعيش في عالم تقهر فيه عقيدته "٢. هذا القول من ابن مفجر المسيرة يدل على أثر التربية الصوفية التي امتدت لقرون في البلاد الإسلامية وقد صبغتها تعاليم المهدي الجهادية، فتحوّلت الأهداف من الفناء في الله إلى الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، فعاش أبناء قائد المسيرة في مستوى العامة ترفعاً عن الدنيا وفي ذلك يقول سعادة عبد الرحمن المهدي مواصلاً ذكرياته عن دولة والده: " لم يكن ما لدينا من مأكّل وملبس يفوق في شيء ما لدى عامة الأنصار، وكان الأنصار لا يعرفون للحياة إلا أنها عبادة وتقوى وجهاد في سبيل الله ومن أجل هذه الغايات السامية كانوا يعيشون لا يزيدهم أذى الفقر والمتربة إلا قوة في الاندفاع نحو غاياتهم السامية "٣. وهنا يمكننا القول أن التربية الصوفية عبر القرون قد أثمرت جيلاً أمكن توجيه غاياته بيسر نحو

١/ مذكرات السيد عبد الرحمن

٢/ الصدر السابق

٣/ نفس المصدر

الجهاد والاستشهاد مما أفرز جيوشاً شهد لها العدو، ولكنها فاقدة للإطار السياسي الإسلامي فكانت الهزيمة رغم الكم في الاندفاع والكيف في التضحية.

عليه نقول أن من الصعب في زماننا هذا بلوغ درجة الاندفاع الحركي الذي بلغته دولة المهديّة التي استفادت من قرون من التربية الصوفية أمكن بذكاء توجيهها لتأسيس دولة قل نظيرها في التاريخ الحديث كما يقول سعادة عبد الرحمن المهدي الذي عايشها، ولكن فقد هذه الدولة لآلية الشورى أفقدها الانتصار في صراعها الخارجي فدالت الدولة وانعزلت المقاومة الجهادية بعدها.

ومن هنا ندعو كل حادب على الإسلام والمسلمين لإقرار الشورى في السلطة والحكم في ديار الإسلام، ورفض مبدأ التدخل بالقوة المسلحة تحت ستار الدين لفرض منهج سياسي على المسلمين، فهذا الفعل رفضه الرسول صلى الله عليه وسلم ووعد فاعله بالخروج من الدين في حديثه في ذو الخويصرة التميمي، الذي شادد الرسول صلى الله عليه وسلم في تقسيم الغنائم في غزوة حنين، مستنداً على مفهوم متصلب في العدالة فارضاً رأيه على ولي الأمر الشرعي قائلاً: أعدل يا محمد، وفي رواية: أتق الله. فقال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: [[فإن له أصحاباً يحقر أحدهم صلواته مع صلواتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة]]^١. وفي رواية [[لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود]]^٢.

وصدق الرسول الكريم فما نحن نرى مدى الضرر الذي سببه من ساقوا إمارة المسلمين بالقوة المسلحة تحت مختلف الشعارات، مثل وحدة الأمة وتطبيق الشريعة وتربية المسلمين، فلا إمكانية للوحدة إلا عبر آلية اختيار مرضية لأن التعدد في الرأي السياسي فطرة إنسانية غالبية ولا يمكن تجاوزها إلا بالشورى. وكذلك لا يمكن تطبيق الشريعة الإسلامية إلا عبر آلية الاختيار السالفة، فالشريعة في الإسلام شاملة ومتدرجة ومرنة وتصل درجة إعلان الكفر والقلب مطمئن

^١/ البخاري ٣٥٣٢ - مسلم ٢٤٠٢

^٢/ البخاري ٤٢٤٦ - مسلم ٢٤٠٦

بالإيمان لقول الله سبحانه وتعالى: **[[إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ]]**^١. أما التربية فقد ثبت فشلها في الماضي القريب أمام أوريا الغازية. عليه نقول ونؤكد أن لا سبيل للرفعة والنماء في كل المجالات للمسلمين إلا عبر تطبيق شورى حرة نزيهة، وليكن تاريخنا الطويل مع الاستبداد عظة وعبرة وقد كتبتة ليالي - حبلى بالفشل - متتابعات.

والله ولي التوفيق

محمد مكي عثمان أزرق

www.islamshoora.com

٢٠٠٥/٩/١٨م

^١/ سورة النحل الآية ١٠٦